بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين وعباد الله المخلصين لا سيما محمد وآله الطيبين الطاهرين

أريد أن أتحدث اليوم بمناسبة يوم بعثة رسول الله (ص)[١]، قبل الحديث أذكر أمرا مختصرا قد ذكرته في أوقات سابقة، وهو أن هنالك طريقتين في التعامل مع الأحداث الرئيسية، الأحداث التي حدثت والتي تشكّل مظاهر لمعتقداتنا، مثلا ميلاد الرسول (ص) ووفاته، وفاة فاطمة (ع)، خلافة أمير المؤمنين (ع) واستشهاده، وأمثال ذلك

الطريقة الأولى: هي جعل هذه الأحداث أحداثا تاريخية بعيدة عن الواقع بحيث أنها لا تمت أبدا بواقع الإنسان المعاش، فقضية رسول الله (ص) أنه بُعث ودعا، أناس آمنوا وأناس رفضوا دعوته وانتهت المسألة، فالإنسان يقدس رسول الله ويقدس مواقفه، من مظاهر هذه الطريقة أنه يبالغ فيجعل رسول الله (ص) بعيدا عن عالم البشر، مواقفه كذلك مواقف خاصة به، هذه الطريقة موجودة في الكتب وفي المجالس بشكل مفصّل، فالإنسان قد يتعاطف مع مواقف رسول الله بهذه الطريقة بدرجة كبيرة، يبكي مثلا، هنالك أناس يتعاطفون مع فريق كرة، فحينما هذا الفريق ينتصر هو يشعر بفرح عظيم، وإذا ينكسر من الممكن أنه يبكي، بهذه الطريقة، قضية غير مرتبطة به إلا بمقدار أنه هو يتعاطف مع هذه القضية

الطريقة الثانية: هي التعامل مع هذه الأحداث تعاملا واقعيا، أضيف إلى ما ذكرته سابقا، أن في عهد رسول الله (ص) هذه المشكلة كانت موجودة، إذا الإنسان يقرأ القرآن بتدبر يجد أن هنالك مشكلة اجتماعية كانت أمام رسول الله (ص)، وهي أن الناس الذين كانوا يعتقدون بنبوة عيسى وبنبوة موسى والأنبياء السابقين (ع) هؤلاء كانوا مؤمنين بهم لكن كانوا يتعاملون معهم ومع مواقفهم كقضايا تاريخية، من الوسائل الرئيسية لجعل الحادثة حادثة تاريخية غير مرتبطة بالناس أن يُطعِّم الحادثة بأشياء غير بشرية ويصبغها بصبغة غير بشرية، فعيسى بن مريم (ع) يصبح

[١] تحدث السيد محمد علي الباقري بهذا الحديث في مسجد البلوش الجمعة ٢٧ رجب ١٤١٠ الموافق ١٩٩٠/٢/٢٣، وقد تطوّع بعض الأشخاص بطباعته مع شيء من التصرف نتيجة تحويل الحديث من مسموع إلى مقروء وقد لا يخلو من أخطاء غير مقصودة

نصف إله، وبطبيعة الحال لا أحد يستطيع أن يكون نصف إله، فإذن قضاياه قضايا خاصة به ولا ترتبط بأي إنسان آخر، وموسى (ع) كذلك والأنبياء (ع) كذلك، وأولياء الله كذلك

في القرآن الكريم نجد كثيرا هذه القضية، أحد الوسائل التي أوجدت في رسول الله (ص) العصمة هو تذكير الله الدائم له، فيُذكّر (**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ**)(الأنعام: ٣٤)، يعني الصورة الموجودة في الأذهان أن الأنبياء السابقين كانوا بحيث أنهم لا يتألمون، لا يعانون، لا يتأذون، لا يواجهون أية مشكلة، فالله ما دام معهم فإذن كل طريقهم مليء بالورود، هذه الصورة كانت موجودة، فالإنسان يقدسه كما يقدس نجمة يمدحها وهي بعيدة عنه

كان هنالك بحوث كثيرة في عهد امبراطور بيزنطي كان يعيش في القرن السادس في الروم الشرقية، كان هنالك تجمّع عظيم للبحث عن طبيعة المسيح، هل الطبيعة الإلهية فيه أكثر أم الطبيعة البشرية أكثر أم هما طبيعتان متوازنتان مثلا!؟ كانت هنالك بحوث من هذا القبيل تجري، كل ذلك لجعل عيسى بن مريم إنسانا غير اعتيادي، غير بشري، بحيث أنه يصبح بين الناس وبينه حاجز يميّزه عنهم، ورجال الدين –ربما فيهم أناس مخلصون– كانوا يساهمون في هذه المبالغات، حتى يصبح عيسى بن مريم (ع) بهذا الشكل

الناس بطبيعتهم يبحثون عن التقديس، هذا التقديس يجب أن يكون في حدوده، لكن الإنسان يحرّف هذا التقديس إلى موارد أخرى (**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ**)، هذه قاعدة عامة، (**وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ . وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ**) هم ماذا كانوا يقولون؟ كانوا يقولون بأن الأنبياء ما كانوا يجوعون، ما كان يصيبهم الأذى، أي شخص كان يعاديهم، الله فورا يصيبه بعاهة، بمرض، ببلاء، بمصيبة، فهكذا كانوا يقولون ائت بآيات يعني اعمل خوارق بحيث أن أعداءك ينتهون، أبو جهل لا يجرؤ على أن يؤذيك، أصحابك كذلك لا يجوعون، بينما (**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**)(الإنعام: ٣٥)، عتاب شديد، يعني تربية شديدة تربية قوية، هذه قاعدة

إذن هناك توجد طريقتان في التعامل مع هذه الأحداث، الطريقة المتعارفة أنه بالِغ كما شئت، يُتحدث عن بعثة رسول الله ساعة، ساعة ونصف، والإنسان حاضر ليستمع، وإذا أخيرا أن رسول الله (ص) هكذا كان، جبرائيل

هكذا كان، فلان هكذا كان، والجبال سلّموا عليه، الأحجار سلّموا، ثم ماذا؟ لا يوجد شيء، لأن هذه القضية هي قضية تاريخية ليست مرتبطة أصلا بالعالم البشري، ويقدس هذا النمط من الأشخاص الذين يتحدثون بهذا الشكل

طريقة أخرى هي أن البلاء لمن؟ للأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، **(ما أوذي نبي مثل ما أوذيت)**[٢]، **(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ)**، **(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)**(الحجر: ٩٧)، هذا هو الطريق، تعامل مع رسول الله (ص) كحي، تقول في التشهد -هذا مستحب- السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، يعني تخاطبه، لا فقط السلام على رسول الله الذي مات قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، ليس بهذا الشكل، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته هذا تعيشه

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(النحل: ٤٤)، في هذه المرحلة التي بعث رسول الله (ص) كان هنالك دينان معروفان موجودان بقوة النصرانية واليهودية، وكان هنالك خلافات شديدة بين الدين الواحد حتى هرقل الذي كان امبراطورا بيزنطيا -في هذه المرحلة حين بُعث رسول الله (ص)- يقال أنه كلما حاول أن يزيل الخلافات الموجودة بين النصارى ما استطاع، كانت هنالك خلافات شديدة، كنائس مختلفة، المسيحية الحبشية كانت تختلف عن المسيحية الموجودة في مصر، والمسيحية الرومية كانت تختلف عن المسيحية التي كانت موجودة في القدس، واليهود كذلك بينهم مذاهب مختلفة بشكل عام، لكن هذه الخلافات -كما ذكرت- هي خلافات في قضايا تاريخية، القرآن الكريم هكذا يذكر **(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ)**(البينة: ١)، أما في الحياة الواقعية لم يكن أي خلاف بينهم

أبو جهل كان مشركا يعبد الصنم، أمية بن خلف كان يعبد الصنم أو كان يتظاهر بعبودية الصنم، وأبو سفيان مثلا كان يعبد الصنم، هرقل كان مسيحيا وكان يعبد الله الذي كانت تطرحه المسيحية في ذلك الحين، كان يذهب إلى الكنائس، وكان يرأس المذهب النصراني في الروم الشرقية، وكذلك اليهود كانوا هكذا، لكن في الحياة الخارجية ما كان يوجد هناك اختلاف إلا في الأشياء التي كانت الظروف الخارجية تطرحها، مثلا أبو جهل فلنفترض أنه كان يعيش في منطقة مُجدبة فكان بطبيعة الحال يتأثر بظروف المنطقة، أما هرقل مثلا كان يعيش في بيئة خصبة فكان يجد وسائل لا يجدها أبو جهل، لكن النيات كانت متشابهة، يعني لو كان شخص يسأل أبا جهل الذي كان يعبد الصنم

---

[٢] بحار الأنوار: ج٣٩، ص٥٦ نقلا عن مناقب آل أبي طالب.

هل أنت تكفر بالمسيحية؟ كان يقول: نعم، لو كان يقال له أنت ترغب في حياة المسيحيين المتجسدة في هرقل الذي هو قمة هذه الحياة، هل تحب أن يكون لك قصر أو أن الكعبة التي فيها أصنام تكون مثل كنيسة آيا صوفيا؟ كان يقول: نعم، كان يرغب، تحب أن تشرب في إناء من ذهب كما يشرب فيه كسرى؟ كان يقول: نعم، هل ترغب أن تجلس في إيوان كما يجلس كسرى ويكون فوق رأسك تاج كبير من ذهب معلق من السقف؟ كان يقول: نعم، هل تحب تلك الحياة؟ كان يقول: نعم أرغب فيها، لكن المجوسية لا أتدين بها، المجوسية قضية تاريخية، المسيحية لا أتدين بها، واليهودي كذلك كان هكذا، ما كانوا (**مُنفَكِّين**)، نية واحدة، رغبة واحدة، ذهنية واحدة، تصورات واحدة، فالدين كان أمرا غير مرتبط بواقعهم المعاش

رسول الله (ص) بُعث (**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**)(الحجر: ٩٤)، هذه الآية ماذا تعني؟ صدع: يعني شقّ، شق هذه الحالة التي كانت موجودة، فأبو جهل –كمثال أذكر– كان جالسا في مكة في تلك البيئة المجدبة كان برغباته يعيش في قصور كسرى، سامعين هذا الذي يُذكر كثيرا ويُركز عليه كثيرا، أن –مثلا– آمنة أم رسول الله (ص) (**حينما ولدَت خرج ضوء أضاء لها قصور بُصرى في أرض الشام**)[٣]، هذا الشيء ماذا كان يعني؟ أن هذه الرغبة كانت موجودة حتى في مكة، قصور الشام قصور بُصرى عظيمة، قصور كسرى عظيمة، كانوا يعيشون هذه الرغبة، كانوا يعتزون، إذا أحدهم كان يستطيع أن يذهب فيلتقي بأحد المرتبطين بكسرى أو بأحد المرتبطين بقيصر، كان مدة طويلة يتحدث بهذا، يشعر بعزّ، كأنه وجد شيئا عظيما جدا، أحد كبار قريش يُنقل أنه ذهب إلى الحيرة، الحيرة كانت مرتبطة بالساسانيين، فهنالك تعلم بعض القصص الفارسية المرتبطة برستم واسبنديار، فكان يأتي فيتحدث بها كما هي، ويجتمع حوله أناس من قريش، هذا ماذا يعني؟ أنهم كانوا يرغبون يا ليتهم كانوا مثلهم، يرفضون دينهم بطبيعة الحال، هكذا كان

كمثال عثمان بن مظعون –حسب ما استنبطت– أنه هو كان في أدنى طبقات الهرم الاجتماعي في ذلك الحين بين قريش، أمية بن خلف –من بني جمح كذلك من نفس الفرقة– كان في القمة من الملأ، من كبار قريش، أمية بن خلف كان يتمنى يا ليته كان مثل كسرى مثل قيصر، اليهودي كان كذلك يفكر، النصراني كان كذلك يفكر، إلا الرهبان الذين كانوا قد ابتعدوا عن عالم البشر إلى الصحاري حتى يستطيعوا أن يحافظوا على اتجاهاتهم

---

[٣] سيرة ابن هشام: ج١، ص١٥٣

ومعتقداتهم، حتى عثمان بن مظعون ربما قبل أن يسلم كان يتمنى يا ليته كان يعيش مثل حياة أمية بن خلف، أمية بن خلف كان يتمنى يا ليته كان يعيش مثل المناذرة في الحيرة، هؤلاء كانوا يتمنون يا ليتهم كانوا يعيشون مثل كسرى وهكذا، كان هنالك قتال بين كسرى وقيصر في الروم، كانت هنالك شعارات، دين مختلف لكن الهدف واحد

بُعث رسول الله (ص)، القرآن الكريم يقول كقاعدة (**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**)(سبأ: ٣٤)، رسول الله نذير، الأنبياء كلهم منذرون، (**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ**) يعني في منطقة، في مدينة، في قرية (**مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**)، هذا الذي أنت تقوله نحن نرفضه، لأنهم مترفون، نحن نرفض هذا الذي أنت تدعو إليه، هرقل كان مترفا وكان مثالا واضحا للمترفين، لكن مع ذلك ما كان يرفض دين عيسى ويقول إني بما أرسلت به كافر! بل كان يدعو إليه، كان يذهب إلى الكنيسة، وكان يستمع إلى الواعظ الذي كان يعظ في الكنيسة، كان يُستمع له وهو يعظ كذلك، لأنه هو كان له منصبان: إمبراطور ومنصب ديني كذلك، هو كان رئيس الأساقفة، لمَ هو كان لا يرفض؟ والقاعدة في هذه الآية هكذا تقول (**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**)، هل هو تغير، أم هذه القاعدة انخرقت في هرقل؟ أم أن دين عيسى حُرّف بحيث أنه ينسجم مع متطلبات هذا الشخص؟ دين موجود وكان يدعى له، والكنائس كانت تُبنى، كنيسة آيا صوفيا، مسجد آيا صوفيا مسجد معروف، هذا كان كنيسة، وبُني قبل بعثة رسول الله (ص) ربما بمئة سنة، يعني كان الدين عزيزا في ذلك الحين، هذه الزخارف، هذا البناء الضخم (**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**)(سبأ: ٣٥)، هؤلاء حاولوا مع رسول الله (ص) أن يجعلوه يركن إليهم شيئا قليلا، يغيّر قليلا، (**ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ**)(يونس: ١٥)، بحيث أن حالة أمية بن خلف تبقى حالة عزيزة ومقدسة في المجتمع، يعني فليكن بلال يؤمن بما يؤمن يعبد ما يعبد لكن تبقى نيته أن حياة أمية بن خلف عظيمة

هؤلاء وقفوا –طبْق هذه القاعدة– ضد رسول الله (ص) لأنهم وجدوا في دعوته أنه يحارب الترف، يحارب حتى لا يكون المال ولا يكون المنصب مقياسا للعظمة، يعني لا أحد ينظر إلى المال كرمز لكِبر الأشخاص، وأن الناس لا يتجهون في هذا الاتجاه وبتبعهم هنالك أناس آخرون، هؤلاء الذين كفروا برسول الله (ص) لم يكونوا فقط أبو سفيان وعبد الله بن جدعان أو الوليد بن المغيرة مثلا، كبار المترفين، لم يكونوا فقط هؤلاء، هنالك أناس آخرون كذلك أصبحوا معهم بعد أن تأثروا بهم، فالإنسان الجائع كان هكذا يفكر أن مثلا هل يصح أن حياة وليد بن

المغيرة لا تكون حياة جيدة مثالية وحياة هذا الإنسان الحافي الذي يدعوه رسول الله (ص) تكون حياته جيدة؟ هذا أي إنسان أي بشر يقبله؟ هذا منطقه أفضل من منطق وليد بن المغيرة؟! وكانوا يرشحون الوليد بن المغيرة باعتبار أنه هو كان يملك، كان ثريا، (**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا**)(المدثر: ١١-١٤) فالإنسان كان هكذا يفكر بأن وليد بن المغيرة ملابسه، وضعه، يأكل في أواني من ذهب، يعيش في قصر، عنده غلمان، عبيد، أبناء، يستطيع أن يتزوج أية امرأة يشاء، هذه المرأة تستطيع أن تنجب له أفضل الأولاد، هذا ما يفهم؟ ورسول الله الذي هو جائع، وأولادهم الذين يصرخون من الجوع في شعب أبي طالب هؤلاء يفهمون؟!

هذه الحالة لم تسمح لأحد أن يفكر إلا هؤلاء الذين تحرروا، منهم عثمان بن مظعون، وقصته المعروفة أنا أذكرها للتدبر، بعد أن أسلم دخل في جوار الوليد بن المغيرة، هذا الذي يُعتبر رمزا والذي يُنقل أن القرآن يشير إليه (**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا**)، دخل في جواره حتى لا يؤذى من قبل الكفار، معنى ذلك يعني أنه اعترف بأن وليد بن المغيرة هو أفضل منه بهذه الدرجة، بعد ذلك فكر ثم أتى إلى الوليد بن المغيرة قال أريد أن أرد إليك جوارك، قال ماذا حصل هل أصابك سوء؟ قال لا، إني فكرت ألاّ أكون في جوار غير جوار الله، إن العزة لمن؟ (**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**)(المنافقون: ٨)، أنا أريد أن لا أخضع لغير الله، أبحث عن العزة في الله وحده، هنا تعجّب وليد بن المغيرة بطبيعة الحال وربما تأذى فردّ جواره، ضُرب عثمان -نتيجة موقف- على إحدى عينيه فاخضرّت، فقال له الوليد ارجع إلى جواري كنتَ في أمان! قال لا، عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله[٤]، عثمان بن مظعون استطاع أن يتحرر من هذه القيود، وليد بن المغيرة وأناس آخرون لم يتخلوا عن هذه القيود

كما قلت كان هنالك دينان رئيسيان معترف بهما في الإسلام، الله تبارك وتعالى نزّل القرآن مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، لكن كان هنالك تحريف، التحريف كان بطرق منها تحريف الكلم عن مواضعه لا أنه حذف شيء منها، تحريف الكلم عن مواضعه تفسيرات خاطئة حتى تنسجم مع متطلبات يرغب فيها أمية بن خلف وأمثاله

أكتفي بهذا المقدار، ونرجو أن الله يجعل في هذه المناسبة بداية تدبر وتقرب من رسول الله (ص) الذي هو طريق إلى الله، والحمد لله رب العالمين

[٤] سيرة ابن هشام: ج٢، ص١٤